العرب
الأربعاء 2021/11/17
السنة 44 العدد 12243

من ليبيا إلى اليمن... إلى الاستثناء المصري

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

ترشح سيف الإسلام القذافي أم لم يترشح للرئاسة لن يصنع ذلك فارقا في ليبيا. ما يصنع الفارق هو لملمة الوضع الداخلي بما يضمن في المدى الطويل حدا أدنى من الاستقرار في بلد يترحّم فيه مواطنوه على أيّام معمّر القذافي. من سخرية القدر الترحّم على أيّام القذافي و"الجماهيريّة" التي أقامها والتي كانت تعبيرا عن نجاح ليس بعده نجاح وعن القدرة على تحويل بلد يمتلك كلّ مقومات النجاح إلى دولة فاشلة.

تحولت ليبيا إلى دولة فاشلة بكلّ معنى الكلمة بعدما تبيّن أن الإخوان المسلمين الذين يعملون تحت واجهات عدّة لا يستطيعون بناء دولة. استغلّ الإخوان "الربيع العربي" لتخريب ليبيا وإيجاد فراغ فيها. ليس ما قاموا به سوى دليل على أنّهم لا يستطيعون لعب دور بناء في أيّ دولة من الدول. صار شخص مثل سيف الإسلام يمثل بريق أمل بالنسبة إلى قسم من الليبيين الذين يخشون من أن يستفيقوا على يوم من دون بلد ينتمون إليه ويعيشون فيه بأمان. لا مستقبل لليبيا في ظلّ إصرار الإخوان المسلمين على تولي السلطة بأيّ ثمن كان حتّى لو كان معنى ذلك الاستعانة بمرتزقة سوريين وغير سوريين جاء بهم رجب طيّب أردوغان إلى البلد.

لم يدخل الإخوان المسلمون بلدا إلّا وخربوه. مضت عشر سنوات وأكثر على سقوط نظام زين العابدين بن علي في تونس. أدّى عبث الإخوان المسلمين، الذين يعملون تحت لافتة حركة النهضة التي يتزعمّها راشد الغنّوشي، إلى جعل مستقبل تونس على كف عفريت. ليس ما قام به الرئيس التونسي قيس سعيّد سوى محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في تونس وإعادة الحياة إلى دولة المؤسسات التي بناها الحبيب بورقيبة والتي حافظ عليها، وإن نسبيا، زين العابدين بن علي. من سخرية القدر أيضا أن الناس في تونس تترحّم على عهد الراحل زين العابدين بن علي الذي لعب دورا في توسيع الطبقة المتوسّطة وجعل من تونس دولة مزدهرة على الرغم من الشوائب التي ظهرت طوال عهده الطويل. في مقدّم هذه الشوائب دخول أرملته ليلى الطرابلسي في مرحلة معيّنة على خط الشراكة في السلطة وتحولّها مع إخوتها وأقاربها إلى الرقم الصعب في المعادلة الداخلية سياسيا واقتصاديا.

بدل أن يعمل الإخوان المسلمون بعد "ثورة الياسمين" على إنجاح التجربة التونسية في مرحلة ما بعد خروج بن علي من البلد، أمعنوا في تدمير مؤسسات الدولة الواحدة تلو الأخرى عن طريق حشر مناصريهم في الدوائر الرسميّة. لم يتوقف الغنوشي وغيره من الإخوان عند نقطة في غاية الأهمّية. تتعلّق هذه النقطة بكيفية بقاء تونس مزدهرة والقضاء على سلبيات عهد بن علي بدل مضاعفة هذه السلبيات مرات عدّة.

ثلاث دول عربيّة هي السعوديّة والكويت ودولة الإمارات سارعت إلى دعم مصر سياسيا واقتصاديا. أهمّ ما فعلته هذه الدول الثلاث يتمثّل في رفض التوجهات الأميركيّة وسياسات إدارة باراك أوباما المتواطئة مع الإخوان

لدى الإخوان شبق ليس بعده شبق إلى السلطة. يظلّ اليمن مثلا صارخا على ذلك. كلّ ما قام به الإخوان، الذين يعملون في اليمن تحت عنوان حزب التجمع اليمني للإصلاح، صبّ في مصلحة الحوثيين. استغلّ الإخوان المسلمون "الربيع العربي" من أجل التخلّص من علي عبدالله صالح. لا يمكن تجاهل أن الرئيس السابق الذي أصرّ الحوثيون (جماعة أنصارالله) على قتله، ارتكب أخطاء كبيرة في السنوات الأخيرة من عهده. لكنّ ما لا يمكن تجاهله أيضا أنّ اليمن الموحّد انتهى في اليوم الذي خرج فيه من السلطة في شباط – فبراير 2012. لم يكن لدى الإخوان المسلمين من مشروع سياسي قابل للحياة. كلّ ما أرادوه هو السلطة. السلطة من أجل السلطة. أثبتت التجارب أن الإخوان يستطيعون التخريب فقط.

ماذا كانت نتيجة خروج علي عبدالله صالح من الرئاسة؟ النتيجة كانت صفقات من تحت الطاولة، مع أطراف عدّة، قامت بها "الشرعيّة" ممثلة برئيس مؤقت اسمه عبدربّه منصور هادي لا يعرف شيئا عن اليمن واليمنيين. استخدم الإخوان المسلمون عبدربّه منصور كي يمعنوا في التخريب. أدّى ذلك بكل بساطة إلى وضع الحوثيين أيديهم على صنعاء في الحادي والعشرين من أيلول – سبتمبر 2014. إنّهم يتوسعون في هذه الأيّام في كلّ الاتجاهات من أجل إقامة كيان سياسي يدور في الفلك الإيراني. كلّ ما حدث في اليمن كان نتيجة التآمر على علي عبدالله صالح من أجل الحلول مكانه. لا يعني ذلك أن الرئيس السابق بريء ومعتدى عليه، لكنّ الواقع الذي لا مفرّ منه أن اليمنيين يترحمون حاليا على عهده بعدما صار بلدهم في مهبّ الريح وبعدما صارت صنعاء مدينة بائسة لا مكان فيها سوى لثقافة الموت التي ينادي بها الحوثيون الذين ليسوا سوى الوجه الآخر للإخوان المسلمين...

تقود التجارب الثلاث في ليبيا وتونس واليمن إلى التساؤل ماذا لو بقي الإخوان المسلمون في السلطة في مصر؟ من حسن حظ مصر تخلّصها من الإخوان باكرا. ليس سرّا أن المصريين نزلوا إلى الشارع في الثلاثين من حزيران – يونيو 2013 من أجل استعادة بلدهم. الأكيد أن القوات المسلّحة لعبت دورا أساسيا في حماية ثورة المصريين من الإخوان المسلمين. كذلك، كان هناك دعم عربي واضح للثورة المصريّة. سارعت ثلاث دول عربيّة هي المملكة العربيّة السعوديّة والكويت ودولة الإمارات العربيّة المتحدة إلى دعم مصر سياسيا واقتصاديا. لعلّ أهمّ ما فعلته هذه الدول الثلاث يتمثّل في رفض التوجهات الأميركيّة وسياسات إدارة باراك أوباما المتواطئة مع الإخوان.

تعافت مصر وتحولت إلى ورشة بناء كبيرة. تشير كلّ الأرقام إلى أن تحسّنا حقيقيا طرأ على الوضع المصري. الأهمّ من ذلك كلّه أن مصر في وضع يسمح لها حتّى برفض أي إملاءات أميركية تصدر عن إدارة لا تعرف شيئا عن الشرق الأوسط ولا عن خطورة المشروع التوسّعي الإيراني على المنطقة كلّها ولا عن طبيعة تنظيم الإخوان المسلمين.

تبدو المنطقة أمام خيارين. خيار السقوط في فخ الإخوان ومشروعهم التخريبي وخيار مقاومتهم... كما حصل في مصر التي استعادت عافيتها بمجرّد التخلص من حكمهم ومن التخلّف الذي كانوا يريدون فرضه عليها.

«Please water»

فاروق يوسف
كاتب عراقي

كانت السخرية الروسية ملغومة بطعم الفجيعة في اقتراح المقايضة لحل أزمة اللاجئين العراقيين المكومين على الحدود التي تفصل بين بيلاروسيا وبولندا. مقابل كل جندي بولندي ساهم في تدمير العراق أثناء الحملة الأميركية عام 2003 سيكون لزاما على بولندا أن تحتضن لاجئا عراقيا. ذلك ليس حلا سياسيا ولا علاقة له بالقانون، غير أنه نوع من المزج بين عبء التاريخ المأساوي وصرخة الإنسانية المكتومة.

ينظر الجنود البولنديون إلى أعدائهم العزل الواقفين وراء الأسلاك الشائكة من غير أن يروهم. البنادق هي التي ترى. البنادق هي التي يمكن أن تتكلم إذا ما اضطر الجانبان إلى الحوار. يفكر الطرفان في اتجاهين مختلفين. طرف يفكر في الموت وآخر يفكر في الحياة. بالنسبة إلى السيدة الحامل فإنها محت كل ماضيها من أجل لحظة تنفتح فيها الأبواب على مستقبل آمن لبناتها ولذلك الطفل الذي لا يزال يعوم في مياه البراءة الأبدية. تفكر تلك المرأة في الجنة فلا تلتفت لئلا ترى الجحيم. لا ترى الأسلاك الشائكة ولا الجنود ولا بنادقهم وتعتقد أنها غادرت الموت إلى غير رجعة. لقد تركت الموت وراءها.

قالت "أنا أشجع كل عراقي على الالتحاق بنا بحثا عن حياة أفضل. حياة تليق بالآدميين". لم تبك لأن الموت يتربص بها. اعتبرت الوضع القاسي الذي تعيشه وقتا ضائعا ستجتازه مع بناتها والطفل الإلهي لتصل إلى الحياة الحقة. لم أر إنسانا يثق بمصيره مثلما كانت تلك السيدة. السر يكمن في الألم العميق الذي يسكن الروح العراقية. لا أمل في العراق. لا يحتاج أولئك الهاربون المطرودون المكروهون المنبوذون المشردون الجائعون المنسيون إلى أن يخترعوا أعداء جددا. فهم يرغبون في أن يكون هناك مَن يحبهم. أن تكون تلك الأرض التي تقع وراء الأسلاك الشائكة أرض محبة. يكفيهم أن وطنهم كرههم بعد أن تأكدوا أنهم لم يكونوا مواطنين. تكفيهم غربتهم في بيوتهم التي صارت نوافذها تطل على ساحات القتل. كم قتل ألفا جندي بولندي من العراقيين؟ ذلك ما لا يُسأل عنه أحد. ولكن كم سيقتل الجنود البولنديون من ضيوفهم العراقيين على الجانب الآخر من الحدود؟

سيكون نوعا من السخرية السوداء إذا اعتبرنا أن هناك على الحدود البيلاروسية – البولندية مأساة إنسانية من غير العودة إلى جذور المشكلة التي تقع في العراق، هناك حيث يتوعد الإخوة الأعداء بعضهم البعض الآخر بمستقبل سياسي غير مريح في ظل تجاذبات حزبية، فئوية، طائفية ونفعية ليس للإنسان العراقي مكان فيها. للعراقيين حظ سيء حين وقعت بلادهم فريسة لأوهام الدولة الأعظم سلاحا واقتصادا وإعلاما وهيمنة وكذبا وزيفا وقدرة على دفع العالم كله إلى الصمت من أجل السلامة. لا أحد وسط تلك الأزمة الدولية يلتفت إلى العراق. ترى لماذا يترك العراقيون بلدا ثريا ويعرضون أنفسهم لشتى صنوف الإذلال والهوان والجوع وصولا إلى الموت على أرض غريبة؟

"Please water" كررتها الطفلة وهي تخاطب الجنود البولنديين. لم تكن هناك ردة فعل. لا لأن الجنود البولنديين لا يفهمون الإنجليزية وحسب بل لأنهم أيضا لا يسمعون. لقد تم إحضارهم لا من أجل أن يسمعوا بل من أجل أن يقتلوا. كانت الصغيرة تعاني العطش وتشير إلى أختها الصغيرة التي تشاركها المعاناة. غير أن المشهد كان سينمائيا وبإخراج هوليوودي لولا أنني على يقين من أن العزلة الإعلامية المفروضة على العراق لا تغري شركات الإنتاج السينمائي التي برعت في سوريا أن تقوم بفبركة أفلام يتصفح البشر من خلالها فصول المأساة العراقية.

للعراقيين حظ سيء حين وقعت بلادهم فريسة لأوهام الدولة الأعظم سلاحا واقتصادا وإعلاما وزيفا وقدرة على دفع العالم إلى الصمت من أجل السلامة، لا أحد وسط تلك الأزمة الدولية يلتفت إلى العراق

توحي حكومة بيلاروسيا كما لو أنها ستضطر إلى خوض حرب فتطلب من شقيقتها الكبيرة روسيا الاتحادية تزويدها بصواريخ نووية. الاتحاد الأوروبي من جهته لا يتخلى عن بولندا التي تعد جدارا يحمي ألمانيا من موجة لاجئين جديدة فيهدد بفرض عقوبات جديدة على حكومة مينسك. أما الدولة العراقية التي يشعل شعبها فصلا من حرب باردة جديدة بين روسيا والغرب فإنها صامتة وغير معنية بالمسألة. أولئك العالقون بين الحدود ليس أمامهم سوى العودة الطوعية. إلى أين؟ إلى العراق الذي طردهم بعد أن أذلهم واضطهدهم ومارس شتى صنوف التعسف والاضطهاد في حقهم؟ أم إلى بلاد ضاقت بهم ففتحت لهم مخيمات للنازحين الذين اختفت بيوتهم بعد أن تمت مصادرة الأراضي التي تقع عليها تلك البيوت؟

الغريب في الأمر أن لا أحد يسأل العراق ما الذي يدفع مواطنيه إلى المخاطرة بحياتهم من أجل الحصول على حق اللجوء في أوروبا؟ ذلك سؤال ممنوع ينعم في ظله أفراد الطبقة السياسية بكل أنواع الترف والرخاء والطمأنينة والأمان. أيها الإنسان العراقي حتى لو وصلت إلى آخر العالم فإن صوتك لن يسمعه أحد. لو أن طفلة غير عراقية قالت "Please water" لاهتز العالم بأسره.